الباب الثاني

رواية الشعر والقيم النفعية

الفصل الأول

التأديب والتربية

رعى الإسلام بمنهجه الرباني المتكامل تربية الإنسان بمراحلها المختلفة، إذ يتعهده طفلاً وغلاماً يافعاً وفتىً ناضجاً ولا يتخلى عنه شيخاً كهلاً، ولما كانت مرحلة إعداد الطفل وتهيئته ليكون مسلماً صالحاً الخطوة الابتدائية في هذا المجال، فقد توجهت إليها الرعاية في التأديب، بالتنبيه على ما يستقيم به إعداد النشىء المسلم وسلوكه باطراد وثبات عقلياً ونفسياً.

وحظي الشعر بمنزلة رفيعة بين مواد تأديب الناشىء المسلم منذ أن كان هناك تعلم بأي شكل من أشكاله، وظل هذا الأمر مرعياً على مر الأزمان لفائدته العظيمة في تشكيل وجدان المتأدب وتوجيه سلوكه، لأنه «لما كان الشعر مستفاداً من الشعور، فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها، وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبة، أو نفرة، أو رغبة، أو رهبة، لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر» فهو ذو «تأثير في النفس من جهة التحريك والإزعاج والتأثير، لا من جهة التصديق والعلم والمعرفة، ولهذا يسمون القول حادياً؛ لأنه يحدو النفوس، أي يبعثها ويسوقها كما يحدو حادي العيس»[1].

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ساكني الأمصار: «أما بعد، فعلموا أولادكم العوم والفروسية، ورووهم ما سار من المثل، وحسن من الشعر»[2].

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى ج ٢/٤٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢/١٨٠ ـ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ممن أدرك أثر الشعر بدءاً في مجال التربية والتأديب إذ يقول: «علموا أولادكم الشعر».

وإذا كان الحسن الذي هو اسم جامع لكل شرف وفضيلة قد جاء في هذا الرسالة مجملاً موجزاً، فإن تفسيراً لأبعاده، وتعزيزاً لروايته، نجده في رسالة أخرى بعث بها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري قال فيها: «مُرْ مَنْ قبلك بتعلم الشعر، فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحضُّ على الخلق الجميل». وفي رواية أخرى: «مُرْ من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب»[1].

ولنا أن نعدّ هاتين الرسالتين الديوانيتين الصادرتين عن أمر الخليفة الراشد وثيقتين هامتين في اعتماد الأدب؛ خاصة الشعر، عنصراً هاماً في تربية الجيل المسلم وتأديبه، إذ قرن التوجيه الرسمي في الرسالة الأولى تعلم الشعر بمهارة الفروسية والعوم، وفي هذا من الوعي بضرورة توازن المنهج التربوي ما لا يخفى، فهو كما يهدف إلى إعداد الفرد جسمياً، لا يغفل عن تعهده وجدانياً وفكرياً، مهما يكن شأن الحياة الجديدة في الأمصار، وتبدل أحوالها، وتعدد متغيراتها البيئيّة والحضارية.

فرواية الشعر والاجتهاد في تعلمه أمر مستحب في أبسط فهم للأمرية في مطلب الخليفة الراشد رضي الله عنه، وقد يرتفع التوجيه والإرشاد في معناه إلى منزلة يقترب فيها من الوجوب إذا نظر إلى وقوع الأمر بالتساوي على تعلم الشعر، واكتساب مرانة عدتي الحرب؛ العوم والفروسية. ولعل مما يرشح هذا الوجوب وفهمه، ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن بعض الشعر واجب الرواية لما فيه من الخير[2].

على أن في الجمع بين تعلم الشعر ومهارتي العوم والفروسية توجهاً نحو إعداد الشخصيّة الإسلامية المتكاملة؛ لأن العرب «كانت تسمي الرجل إذا كان يكتب ويحسن الرمي، ويحسن العوم وهي السباحة ويقول الشعر، الكامل»[3].

---

(١) ابن رشيق القيرواني ج ١/ ١٠.

(٢) الشوكاني: فتح القدير ٤/ ١٢١.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٢/ ١٦٨.

والسعي نحو التكامل في بناء شخصية المتأدب نفسياً وسلوكياً أساس في توجيهات عمر التي تصدر عن قناعة بدور الشعر في تعبئة النفس، وتغذية الوجدان بقيم خلقية معرفية ذات فاعلية وتأثير على سلوك المتأدب، فتعزز الخير في نفسه، وتعضد من سلوك طريقه، يقول عمر: «تحفظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويفتق الفطنة، ويشحذ القريحة، ويحدو على ابتناء المناقب، وادخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجر عن مواقعة الريب، ويحض على معالي الرتب»[1].

وإذا وعى المتأدب هذه الأهداف السلوكية، وتعمقت في نفسه، بعد أن غدت محصولاً في ذاكرته، فإنه قادر على طلب الحق وتبعاته؛ أداء وحفظاً ورعاية، يقول عمر في توجيه ولده عبد الرحمن إلى هذه الآداب: «يا بني: انسب نفسك وأمهاتك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يكثر أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يعرف الشعر لم يؤد حقاً، ولم يقترف أدباً»[2].

وكان حرص عمر بن الخطاب ظاهراً في ألّا تظل أهدافه في التربية والتأديب مطلقة من غير تقييد، وألا تجوب توجيهاته الأمصار نظرية دون تطبيق، حيث أمر بحفظ بعض النماذج الشعرية وسيلة في تحقيق الأهداف، ونبه ببعض المواقف الأدبية على أسلوب في تطبيق الأفكار النظرية. روى أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري قال: «أخبرنا موسى بن يحيى الكاتب قال: حدثنا عبد الله بن عمرو قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: حدثني ابن أخي ابن شهاب عن عمه أن عمر بن الخطاب رضي الله سبحانه عنه كان يأمر برواية قصيدة لبيد:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي وعجل[3]

(١) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٥٦.

(٢) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/١٥٨.

(٣) أبو بكر الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال ص ٥١٠.

والقصيدة بينة الدلالة على المآثر الفاضلة، والأخلاق الحميدة التي شكلت شخصية لبيد بين الجاهلية والإسلام[1].

ولعل في مواقف عمر بن الخطاب من الشعر الجاهلي، المشار إليها سابقاً، وثنائه على شعر بعض الشعراء مثل زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني في بعض أشعاره، وأبي قيس بن الأسلت وسواهم مما أنشده عمر أو استنشده بمعيار الصدق والإصابة في المعنى[2]. لعل في ذلك كله دليلاً مرشداً على ما يحسن لتأديب الناشئة وما ينتخب لتربيتهم وتوجيههم.

وأبعد من ذلك في الحرص على أن يظل التأديب والتربية الأدبية في حدود من أهداف البناء لا الهدم، وتكامل النظرية والتطبيق إنشاداً وإنشاءً، أو رواية وابداعاً؛ كان رجوع عمر إلى الشعراء ومراجعته لهم بالسؤال عمّا أحدثوا بعد الإسلام من معنى أو ما اتجهوا إليه من قول. فقد كتب عمر إلى عامله على الكوفه: أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام، فقال الأغلب:

أرجـزا تـريد أم قصـيدا؟ فقـد سألـت هينـاً موجـودا

وقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ الفين»[3].

ذلك أن تداول شعر المعاصرين من المسلمين بين المتأدبين في الأمصار أشيع، والتأثر بمعانيه أسرع، واتخاذه مادة للتأديب أوجب. ولا يخفى أن في هذا ادراكاً سابقاً لمدى خطورة الأدب المعاصر على تشكيل الوجدان وتوجيه الأخلاق سلباً إذا ظل بعيداً عن منهج الإسلام الشامل، وإرشاداً إلى ضرورة استمرارية الالتزام بالإيجابية

---

(١) انظر تحليلاً مفصلاً للقصيدة في الفصل الأول من الباب الرابع «مرويات شعرية وقيم جمالية».

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الأول ص ٥٦-٦٣.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ١٣٥-١٣٦ وشرح القصائد السبع الطوال ص ٥١٦.

كلاً لا يتجزأ، وجماع الأمر في كل ذلك قوله: «تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تبتغى، ومساوىء تتقى»[1].

ولعل مما يعزز هذا الفهم لمنحى عمر في سؤال شعراء الأمصار عمّا أحدثوا؛ فهم معاوية بن أبي سفيان لمهمة الشاعر المسلم ورسالته في التأديب والتوجيه الخلقي، إذ يقول لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص لما رآه مهتماً بالشعر، معجباً به: «قد رأيتك تعجب بالشعر، فإذا فعلت فإياك والتشبيب بالنساء، فتعرَّ الشريفة، وترمي العفيفة وتقر على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء، فإنك تحنق به كريماً، وتستثير به لئيماً، وإياك والمدح، فإنه كسب الوقاح، وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك، وتؤدب به غيرك»[2].

ولا يزال الحض على تعلم الشعر والتأديب به أثيراً بأبعاده الخلقية وأهدافه السلوكية عند خلفاء بني أمية ممن كان له صحبة أو ممن وعى هذا المنهج عن الصحابة رضي الله عنهم، فقد «بعث زياد بن أبيه بولده إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالماً بكل ما سأله عنه، ثم استنشده الشعر فقال: لم أرو منه شيئاً، فكتب معاوية إلى زياد يقول: ما منعك أن ترويه الشعر، فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل»[3]

وتبدو معالم هذا المنهج في التأديب والتربية ماثلة في إشارة غنية الدلالة صدرت عن عبد الملك بن مروان إذ يقول لمؤدب ولده: «روهم الشعر يمجدوا وينجدوا»[4] فهو يتطلع إلى أن يحقق التأديب رفعة في شخصية ابنائه تحملهم على أن يتبوأوا شرفاً ومجداً، وأن يتحسسوا في أنفسهم مروءة وشهامة في الإغاثة والإنجاد. وليست

---

(١) ثعلب: مجالس ثعلب تحقيق عبد السلام هارون ٢/٤١١.

(٢) الحصري: زهر الآداب تحقيق علي محمد البجاوي ٢/٢٣.

(٣) ابن عبد ربه: العِقد الفريد ٦/١٠٨.

(٤) البخاري: الأدب المفرد ص ١٢٧ والسيوطي: المزهر ٢/٣٠٩ وعيون الأخبار ١/١٦٧.

هذه الإشارة إلاّ مظهراً من مظاهر المتعة الأدبية التي كان عبد الملك يجدها في إنشاد الشعـر أو استنشاده أو نقده، وكان يعرف للشعر والشعراء فضلاً مميزاً، استمع إليه يفصل القول في فضائل الشعر برسالة كتبها إلى الحجاج وقد بلغه أنه جفا الشعراء: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد: فقـد بلغني عنك أمر كذب فراستي فيك، وأخلف ظني عندك، وهو إعراضك عن الشعر والشعراء، كأنك لا تعرف فضيلة الشعر ولا تعلم مواضع كلام الشعراء ومواقع سهامهم، أو ما علمت يا أخا ثقيف أن بالشعر بقاء الذكر، ونماء الفخر، وأن الشعراء طُرُزُ المملكة، وحُلِيّ الدولة، وعناوين النعمة، وتمائم المجد، ودلائل الكرم، وأنهم يحضـون على الأفعـال الجميلة، وينهون عن الأخلاق الذميمة، وأنهم سنوا سبيل المكـارم لطلابهـا، ودلـوا بغـاة المحـامـد على أبوابها، وأن الإحسان إليهم كرم، والإعراض عنهم لؤم وندم، فاستدرك فارط تفريطك، وامح بصوابك وحي أغاليطك»[1].

وبـالرؤية المنهجية ذاتها يوصي الرشيد الكسائي بالأمين والمأمون، فكان من جملة وصيته: «ورَوِّهما من الشعر فإنه أوفى أدب يحض على معالي الرتب»[2].

ولم يكن أمر هذا المنهج والعناية بمروياته من الإحسان قصراً على أولي الأمر من أهـل السيادة والشـأن، بل إن له سلطانـاً عاماً في المجتمع الإسلامي، وقد يطول الحديث في تتبع ذلك بالأمثلة، إلاّ أن تنبيهاً خاصاً من حياة التابعين وآخر عاماً متأخراً من زمن المسلمين في الأندلس، يعطي انفراد كل منهما أو اجتماعهما البيان الغاية عمّا الحديث بصدده. فقد أخرج أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن معن بن عيسى قال: «سمعت أن عبـد الله بن جعفـر بن أبي طالب قال لمعلم ولـده: لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها:

---

(١) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٥٦.

(٢) نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٥٧.

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

ويقول: إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم»[1].

وجاء في وثيقة استئجار مؤدب عربية لمحمد بن عبد الله: «استأجر فلان بن فلان، فلان بن فلان المؤدب، لتعليم ابنه فلان سنة، أولها شهر كذا من سنة كذا، النحو، ويملي عليه الرسائل، ومخاطبات البلغاء، وتوقيعات الأمراء، ويرويه من الشعر الجاهلي والإسلامي الشعر الحسن؛ السليم من وصف الخمر والخنا وقبيح الهجاء، بكذا وكذا، دفع فلان شطر هذه العدة إلى المؤدب فلان وقبضها منه، وأبرأه منها، فإذا انقضت السنة المذكورة دفع فلان بن فلان إلى فلان بن فلان باقي أجرته بلا تكدير ولا مطل إن شاء الله.

«شهد عليهما بذلك من عرفهما، وذلك في تاريخ كذا»[2].

فإذا كانت الملاحظات السابقة عامة من غير تحديد للمرويات الشعرية ذات المضامين الخلقية، أو خاصة بما يبعث الهمة والتطلع إلى المعالي من الرتب، فإن في هذه الوثيقة تحديداً للحسن من شعر الجاهلية والإسلام، وتقييداً لمضمونه بالبراءة من شعر الخمر والفحش من القول أو الفعل، وقبيح الهجاء، لئلا ينصرف الحسن والإحسان إلى غير متعلقه من الفن والقدرة التعبيرية عن المعاني المختلفة ببراعة، وفي هذا التحديد إنباء عن كمال العناية بالخطة الدقيقة في تأديب الابن، والإخلاص في توجيه سلوكه، وتشكيله بالنافع المفيد.

على أن التركيز على الفائدة الخلقية أو المنفعة السلوكية للرواية لم يكن ملغياً النظرة النقدية إلى الشكل الفني للمرويات أو أسلوب التعبير بما يحمل من طاقات

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣/٧٥.

(٢) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ترجمة د. الطاهر أحمد مكي ص ١٧٣.

وقد كره الإمام مالك الأجرة على تعليم الفقه والنحو والفرائض، وأجاز ابن حبيب تعليم الشعر إذا لم يكن فيه هجاء ولا ذكر الخمر، وأيام العرب والرسائل.

لغوية في التوصيل والاتصال؛ ذلك أن المعنى مهما يكن حظه من الشرف والسداد والصحة، فلن تتعطف عليه جوانب النفس، أو يلامس شغاف القلب، إذا لم يجد له سكناً جميلاً في حلي الألفاظ، وممتع الصور، ومطرب النغم، التي تتناغم في إحداث القدرة التأثيرية في التمكين للمعاني وتعميق الاستجابة لها، ولئن لم يأت التنويه بهذه العناصر صريحاً، فقد اجتمعت في محور الغاية التعبيرية المعززة للفائدة السلوكية الخلقية، كالعفة والصدق، والعذوبة، والرفق، والقوة وما إلى ذلك مما يشي بملامح عناصر التعبير الجمالية في التأثير.

فعائشة رضي الله عنها تقول: «رووا أولادكم الشعر تَعْذُب ألسنتهم»[1] فتنبه بهذه الإشارة إلى أسلوب تحقيقها من الشعر العذب في ألفاظه، السهل في تراكيبه وأدائه.

وعمر بن الخطاب يلتفت إلى خاصية الشعر العفيف بما يحمل من لوازم تأثيريه في إحداث الاستجابة له، وعلوق النفس به، للفظه الرشيق وبعده عن التكلف واسترساله مع الطبع وما إلى ذلك من وسائل عظيمة الغنى في تحسين الشعر وتجميله، يقول عمر بن الخطاب: «اروا من الشعر أعفه، ومن الأحاديث أحسنها، ومن النسب ما تواصلون عليه، وتعرفون به، فرب رحم مجهوله قد عرفت فوصلت، ومحاسن الشعر تدل على محاسن الأخلاق، وتنهى عن مساويها»[2]. وقال أيضاً «علّموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما يجمل من الشعر»[3].

وفصاحة المتأدب تتناسب وفصاحة محفوظه، ببعده عمّا تداخل تركيبه، وأغرب في لفظه، وتنافر في بنائه، وتكدر سياقه بالتعقيد، ولذلك كانت دعوة معاوية للحارث بن نوفل في تأديب ابنه «روه فصيح الشعر، فإنه يفتح العقل، ويفصح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة»[4].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٦/١٠٨.

(٢) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/١٥٩.

(٣) المبرد: الكامل ١/٢٦٥.

(٤) أبو هلال العسكري: ديوان المعاني ١/١١٤.

ويزيد عبد الملك بن مروان عناصر الشكل الفني للمرويات وضوحاً بقوله لمؤدب ولده: «أدبهم برواية أشعار الأعشى، فإن لها عذوبة تدلهم على محاسن الأخلاق، قاتله الله! ما أغزر بحره، وأصلب صخره»[1]. فهو يدرك العلاقة بين عذوبة الشعر وسهولته، وما يكتسبه المتأدب من رقة أدائه، وتهذيب في أسلوبه ينعكس أثره على خلقه، وتحليه بالرفق في شؤونه، الذي لا يكون في شيء إلّا زانه ولا ينزع من شيء إلّا شانه.

على أن الرقة لا ينبغي أن تفارق الجزالة، ولا تبرح السهولة المتانة، ولذلك كان إعجاب عبد الملك بهذه الصفة في شعر الأعشى فرغب فيها بالتنبيه عليها بقوله: «ما أصلب صخره».

أما تدفق شعر الأعشى بطبع مسترسل، ونفس طويل «ما أغزر بحره» فمفيد في طلاقة لسان المتأدب وحاجب له عن الحصر في القول، والعي في الخطاب. فأصاب عبد الملك بذلك كله الأثر النفسي لنوعية شعر التأديب، إذ في عذوبته ما يحسنه في النفس، ويعظم غناءه في القلب، ويعجل تركيزه في الذهن.

وبهذه الأخبار المقتضبة يمكن القول إن منهج رواية الشعر في التأديب والتربية عند سلف هذه الأمة منهج سلوكي وظيفي يعنى بتغذية حاجات المتأدب النفسية بما يرشد سلوكه ويوجه غرائزه نحو القيم الخلقية، كما لا يغفل عن تحقيق بعض المهارات المكتسبة في فصاحة التعبير وطلاقة اللسان. وبقدر ما في هذا المنهج من أصالة، فإن فيه إدراكاً سابقاً للمقولة التربوية الحديثة التي تقول: إن التعلم القويم النافع هو الذي يترك أثراً في سلوك المتعلم. وبهذا الإدارك الأصيل كان التوجيه للإحسان في الرواية بالموقف الإيجابي بحسن اختيار ما يحقق الهدف والأسلوب معاً.

* * *

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/٢٠٢.

وبالرؤية ذاتها جرى المفكرون من المتكلمين وأهل العلم من الفقهاء في توجيه الصبية في التعلم، والناشئة في التأدب، وفي تناولهم لذلك ترغيب فيما يروى، وتحذير مما لا تجوز روايته، وخلاف حول المقدار الذي يرويه من الشعر، وتباين في الرأي حول المرحلة التي يتقدم فيها الشعر على غيره من العلوم النافعة أو يتأخر عنها.

كتب الجاحظ رسالة إلى المعتصم، وقيل إلى المتوكل في الحض على تعليم أولاده أنواع الأدب، ومما جاء فيها: «يا أمير المؤمنين: علّم بنيك من أنواع الأدب ما أمكن، فإنك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يعرفوه، وذلك أن حزاماً صاحب خيلك حين سألته عن الوقعة ببلاد الروم قال: لقيناهم في مقدار الإصطبل، فما كان إلّا بمقدار ما يحس الرجل دابته، حتى قتلناهم في مثل نثير السرجين، فلو طرحت روثه لما سقطت إلّا على ذنب برذون.

. . . يا أمير المؤمنين: إنما ينطق اللسان بما يتصور الجنان، ويظهر في الكلام ما يخطر على الأوهام، فمن لم يعرف إلّا شيئاً واحداً لم يتكلم إلّا عليه، ومن كثر علمه كثرت خواطره، واتسعت مذاهبه، ورب هزل أنفع من جد، إذا أصيب به موضع الحاجة إليه، ووضع بحيث تقع همم النفوس عليه. والسلام»[1].

تحمل هذه الرسالة أفكاراً جديدة في التأديب هي صدى للتغيرات التي أصابت الحياة الاجتماعية والقيم الأدبية، فلم يعد الشعر متفرد الهيمنة على الحياة الأدبية على الرغم من علو مكانته، إذ أضحت الكتابة الفنية صنعة ذات شأن بالقصد والتعلم.

فالجاحظ يرى في الأدب بفنونه من الشعر والنثر مصدراً من مصادر المعرفة «فإنك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يعرفوه»، وتنوع هذه المصادر مفيد في كثرة الخواطر واتساع المذاهب في القول، ومعنى ذلك أن الاطلاع على الأدب وحفظ الشعر أضحى مرتبطاً، في منظور من يمثله الجاحظ، بتنمية المهارات اللغوية

(١) الحصري: جمع الجواهر أو ذيل زهر الآداب ١١٦-١٢٠.

القادرة على الخطاب والمحاورة والجدل والوصف، ولم يعد أمر التأديب في منظور هذا الاتجاه مستهدفاً السلوك الخلقي، خاصة إذا زدنا على ذلك دعوته إلى تنويع المادة التي يتأدب بها المتعلمون بأن تشمل الهزل ونحوه من النوادر والمفاكهات والملح والباطل. «فرب هزل أنفع من جد، إذا أصيب به موضع الحاجة إليه، ووضع بحيث تقع همم النفوس عليه».

لأن التأديب وإن أصاب نفعاً بتنويع نشاط المتأدب بمباعدته عن السأم والملل، أو بتزويده بمادة احتياطية لموضع الحاجة، فإن الخشية في ذلك أن يغلب الهزل الجد، خاصة إذا صادف متأدباً يستروح لذلك.

وفي الاتجاه ذاته من ربط محفوظ الطالب واطلاعه بما يحسِّن مهارته على الكلام وطلاقة اللسان في الخطابة والحديث جاءت العناية بالأرجاز الشعرية ذات البناء اللغوي المتميز بالمتانة والقوة، قال المنتجع لرجل من الأشراف: ما علّمت ولدك؟ قال: الفرائض، قال: ذلك علِم الموالي لا أبالك، علّمهم الرَّجز، فإنه يُهَرِّت أشداقهم»[1]، وفي توسيع الأشداق ما يعين على التشادق والصوت الجهير الممدوح عند العرب.

ولهذا الاتجاه في التأديب تفسير نجده عند أبي هلال العسكري الذي يرى أن الخطابة والكتابة «مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص»[2]، لكن ذلك لا يعني عدم حاجة صاحبهما لرواية الشعر، إذ أن «الشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها، فحاجة الكاتب والخطيب، وكل متأدب بلغة العرب، أو ناظر في علومها إليه ماسة، وفاقته إلى روايته شديدة»[3].

---

(١) المبرد الكامل: ٢/٦١. وانظر البيان والتبيين ١/١٢٠-١٢١.

(٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين ص ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٤٤.

وإذا كان الأمر بهذا التلازم بين الكتابة ورواية الشعر، فمن المفيد التنويه بموقف ابن قتيبة في وصاياه في مقدمة كتابه «أدب الكاتب»، حيث جعل الالتزام بالخلق الذي شرعه الله لعباده أساس الأدوات التي يراعيها المتأدب في نفسه أولاً قبل أدبه، فهو يقول: «ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذِّب أخلاقه قبل أن يهذِّب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب، ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول، شنيع الكلام ورفث المزح»[1]. وفي خاتمة وصاياه الخاصة بأدوات الكتابة من ترك التقعير والتكلف والدخيل يختم مقدمته بالتأكيد على ما بدأه فيها من رعاية الأخلاق والآداب فيقول: «هذا منتهى القول فيما نختاره للكاتب، فمن تكاملت له هذ الأدوات، وأمده الله بآداب النفس من العفاف والحلم والصبر والتواضع للحق وسكون الطائر، وخفض الجناح، فهو المتناهي في الفضل العالي في ذرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخير الدارين إن شاء الله»[2].

ويستوقف ابن قتيبة بحصافته المؤدب قبل المتأدب بمجانبة الألفاظ الدخيلة في الكتابة التي تجذب الشباب المسلم إلى عالم ملىء بالخرافات والفرضيات والخيال والوهم، دون فائدة تنفع، أو حقيقة تدرك، خاصة ممّا جرى على ألسنة الفلاسفة والمتكلمين «فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد، وسمع الكيان والأسماء المفردة، والكيفيّة والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة، راعه ما سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة فإذا طالعها لم يحل منها بطائل... فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه، وقيداً للسانه، وعياً في المحافل، وغفلة عند المتناظرين»[3].

وابن قتيبة بذلك راغب بالناشئة عن هذه الألفاظ التي تحجب عنهم عالم النور

(١) ابن قتيبة: أدب الكاتب ص ١١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٢.

واليقين الذي رسمه القرآن الكريم بلغته الواضحة وأسلوبه المبين[1]، وشأن ابن قتيبة في نزعته الدينية هذه التي صدر عنها شأن الدراسات اللغوية التي كان غرضها خدمة لغة القرآن بالنموذج والمثل من كلام العرب وشعرهم في حدود زمانية معينة، فالتقى هذا النزوع الديني بمنهج تربية الأبناء وتأديبهم، فتأكد بذلك اتجاه خلقي في تقويم الإجادة ونقدها.

ولا يعني القول إن أصحاب النزعة الدينية من أهل الفقه واللغة رعوا جانب الإحسان فيما يرويه المتأدبون، أن يجرد منه ذوو النزعة العقلية؛ لأن الدين والخلق قاعدة المنهج التربوي وأساسه في الإسلام، فالاتفاق معقود على أن الشعر الخلقي وروايته وحفظه مصدر هام في توجيه السلوك وتحريك النفوس نحو الفضيلة والخير، لكن الخلاف واقع في روافد الفكر من علوم الأوائل أو العلوم العقلية، والمرحلة المناسبة لرواية الشعر في التأديب، ولعل أبا علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) خير من يمثل هذه الموافقة وهذه المخالفة معاً.

فهو يرى أن محاسن الأشعار فيها القدرة على ترسيخ ما وعاه المتأدب من آداب الشريعة وما تعوده من حصيلة النظر في كتب الأخلاق من صدق في القول، وما تعلمه في كتب الحساب من صحة البرهان، «فيتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمنا»[2].

وفي حمى هذا الإحسان في أنماط الشعر التي بناؤها على الصدق والدقة في إصابة المعنى المراد كان تحذيره من «النظر في الأشعار السخيفة، وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضروب من الظرف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً»[3].

---

(١) د. عبد الرحمن عثمان: مذاهب النقد وقضاياه ص ٢٧٣.

(٢) ابن مسكوية: تهذيب الأخلاق ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٠ وقد تأثر أبو حامد الغزالي بمقولة ابن مسكوية هذه فنقلها بنصها وهو بصدد تأديب الصبيان (انظر إحياء علوم الدين ٣/٩٣).

ولا فرق عند ابن مسكويه بين هذا الضرب من الغزل القاصد إلى الظرف وحكاية العشق دون فحش، وشعر المجون المجاهر بالقبح، ما دام المدار فيهما على الكذب والسخف والفتنة والإفساد، فالحذر كل الحذر «من معاشرة أهل الشر والمجون، والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة، وركوب الفواحش المفتخرين بها المنهمكين فيها، ولا يصغي إلى أخبارهم مستطيباً، ولا يروي أشعارهم مستحسناً، ولا يحضر مجالسهم مبتهجاً، وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم، وسماع خبر واحدٍ من أخبارهم يعلق من وضره ووسخه بالنفس ما لا يغسل عنها إلّا بالزمان الطويل والعلاج الصعب، وربما كان سبباً لفساد الفاضل المحنك، وغواية العالِم المستبصر، حتى يصير فتنة لهما، فضلاً عن الحدث الناشىء المسترشد»[1].

وأسوأ من ذلك كله أن تتخذ رواية الشعر الفاحش وسيلة للتكسب، بأن يُعدّ الناشىء ليكون راوية لهذا اللون من الشعر، يمتع بها غيره من السامعين في المجالس، وذلك بلاء وشقاء يجب التخلص منه، فمن «ابتلي بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش، وقبول أكاذيبه، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات، كما يوجد في شعر امرىء القيس والنابغة وأشباههما، ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء يقرونه على روايتها وقول مثلها، ويجزلون له العطية... فليعد جميع ذلك شقاءً لا نعيماً، وخسراناً لا ربحاً»[2].

وعلى الرغم من رعاية ابن مسكويه لهذه القيمة العالية لأثر الشعر في التربية والتأديب، إلّا أن الشعر وأثره متأخر رتبة عن قيمة العلوم العقلية؛ علوم الأوائل في اكساب العادات الحميدة والآداب الخلقية الرفيعة، فدور الشعر والحالة هذه دور التأكيد للمكتسب من العادات والآداب،فالصبي يربى أولاً على «آداب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعود، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد له تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود

(١) ابن مسكوية: تهذيب الأخلاق ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٥١-٥٢.

صدق القول وصحة البرهان، فلا يسكن إلاّ إليها، ثم يتدرج حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الإنسان، فهو السعيد الكامل، فليكثر حمد الله تعالى على الموهبة العظيمة والمنة الجسيمة»[1] «ثم لا يزال به التأديب والسنن والتجارب حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤخذ ما دام طفلاً بما ذكرناه ويذكره، ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب، حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمناه»[2].

ومهما يكن شأن تأكيد القيم بالمرادف أو ما يجري مجراه مضارعاً أو مساوياً للقيم ذاتها، فإنه تابع في الأهمية للمقدم عليه، وعلى ذلك يمكن القول إن قيمة الشعر المعرفية متراجعة عند ابن مسكويه عمّا عرفت به عند من سبقه أو عاصره بدءاً بعمر بن الخطاب في قوله: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» ومن وافقه بعد ذلك من النقاد مثل ابن سلاّم، أو من ذهب المذهب ذاته مثل ابن قتيبة والقاضي الجرجاني وابن طباطبا العلوي.

وأياً كان الأمر في اجتهاد ابن مسكويه في خطوات تأديب الناشيء فقد خص الأشعار الحسنة بالدور المساند للقيم المعرفية في التربية، وهو إحسان كان يمكن أن يكون منهجياً لو أنه أعطى المثال الأدبي لذلك نصاً أو إشارة، كما أعطى شعر امرىء القيس والنابغة الذبياني نموذجاً للقبيح الذي يحذر في الرواية منه.

وتأتي محاولة ابن حزم في هذا المجال منهجية بما علل للمرغوب فيه، وبما فسر للمرغوب عنه من الأشعار، وأكثر شمولاً ممن سبقه بما ضرب من مثال أو حدد من معان وأغراض، فالشعر في رؤية ابن حزم تتوزعه أحكام الفقه الثلاثة: النهي المطلق، والإباحة المطلقة، والإباحة والكراهة بشرط، وبيان ذلك كما يلي:

١ـ المباح من الشعر في الرواية لا يكون «إلاّ من الأشعار التي فيها الحكم والخير

---

(١) المصدر نفسه ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠.

كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العون على تنبيه النفس»[1].

٢- المرفوض الذي ينبغي تجنبه أربعة أضرب: الأغزال الرقيق، والأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب، وأشعار التغرب وصفات المفاوز، والهجاء.

٣- مباح مكروه، ويختص ذلك شعر المدح والرثاء، «فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح، وهذا يقتضي لراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما في هذين النوعين الكذب، ولا خير في الكذب»[2].

ويولي ابن حزم المرفوض المتجنب تفصيلاً يتناول آثاره النفسية والاجتماعية على الفرد والجماعة. وهو تناول فيه إدراك لطبيعة الشعر وخصائصه القادرة على تشكيل الراوي والسامع معاً، ولئن بدت الإصابة في هذا الإدراك من الناحية النظرية، فإن ابن حزم لم يجاوز المدار الشعري لعصره (٣٨٤هـ - ٤٥٦) في بعض ما ذكره من أغراض الشعر كالمجون والخلاعة والغزل بالمذكر والهجاء والمدح والرثاء.

وأثر هذه الأضرب الأربعة من الناحية النفسية تعكسه طبيعتها الوجدانية العاطفية ذات الانتشار السريع، والعلوق النفسي، فالاغزال الرقيق «تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة»[3] وأشعار التصعلك حماسيّة العاطفة تثير النفوس وتهيج الطبيعة، وكذلك يقال عن أشعار الغربة، وصفات المفاوز والهجاء، ولذلك كان تسهيل الفساد وتهوينه صفة تلتقي عندها هذه الأضرب الأربعة، فالاغزال الرقيق «تسهل الانهماك في الشطارة والعشق... لا سيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردي جملة» والأشعار

(١) ابن حزم الظاهري: رسالة العلوم ص ٦٧.

(٢) ابن حزم الظاهري: رسالة العلوم ص ٦٨.

(٣) ابن حزم: رسالة العلوم ص ٦٧.

المقـولـة في التصعلك وذكر الحروب، «تسهل على المرء موارد التلف. . . وتهون الجنايات والأحوال الشنيعة. . .» وأشعار التغرب «تسهل التحول والتغرب. . .» أما الهجاء «فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه. . .»[1].

والأثـر الاجتماعي الخطر لهذه الأغراض مرتب على أثرها النفسي في مجالي الفـرد والجماعة، من حيث فساد الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة، وإخلاق العرض، وإثارة الفتن، وتهوين الجنايات والشره إلى الظلم، وسفك الدماء، وتمزيق الأعراض، وذكر الأموات، وانتهاك حرم الآباء والأمهات، «وفي ذلك حلول الدمار في الدنيا والآخرة».

ولئن كان ابن حزم جازماً بأن الهجاء «أفسد الضروب لطالبه» لأثره المدمر في الدنيا والآخره، فإن حجم الإفساد في الأضرب الأخرى لا يبدو كبيراً كما يفهم من «ربما» التي صدر بها ابن حزم آثار الأضرب الثلاثة، «فالاغزال الرقيق. . . حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد. . .» والأشعار المقولة في التصعلك «ربما أدته إلى هلاك نفسه في غير حق. . .» وأشعار التغرب. . تنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى».

وهـذه الدقة التعبيرية غير ملغية عن ابن حزم حياده عن ظاهريته التي عرف التزامه بها في الفروع، إذ كان فيه «فرط ظاهرية في الفروع لا الأصول»[2] وقد حمله على ذلك في أضرب الشعر السابقة تبريرات نفسية وتصورات عقلية، على الرغم من أن الحسن والقبح عنده ليسا عقليين، فليست الأفعال حسنة في ذاتها أو قبيحة في ذاتها، فلا قبح إلا ما قبّح الله، ولا حسن إلّا ما حسن الله[3].

والشعر عند أكثر العلماء يحدده ظاهر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق محمد نعيم العرقسوسي جـ ١٨/١٨٦.

(٣) انظر د. أحمد الحمد: ابن حزم وموقفه من الإلهيات ص ٤٣٨-٤٤٤.

«الشعر بمنزلة الكلام، حسنه حسن كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام» والحَسَنُ (ما حَسُن من كل شيء) صفة مقابلة موازية للإحسان (العلم بالحسن) الصفة العملية للوعي الباطن[1]، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[2] فالإحسان معيار جمالي عام في المنهج الإسلامي، ومقتضاه في النص الأدبي: شرف المعنى والفكر (خلقياً وإبداعياً)، نقاء الإحساس، تهذيب الأداء، نبل الغاية.

وأغلب الظن أن ابن حزم لم يبرح مقتضى الإحسان وهو ينظر لرواية الشعر؛ لأن المتعة الأدبية لديه كامنة في الصدق الخلقي الذي لازمه إبلاغ الحق وتعليم الخير، ولذلك كانت «الأشعار التي فيها الحكم والخير كشعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العون على تنبيه النفس»[3].

وبهدي مما سبق يمكن تفسير موقف ابن حزم من الشعر المتجنب الرواية، فالغزل الماجن والهجاء فيهما من فحاشة المعنى، ورداءة العاطفة وانكشاف التعبير ما ينزع الجمال والإحسان عنهما، والمدح والرثاء إذا قاما على الكذب فإنه صارف لهما عن شرف المعنى وسموه، متجه بهما إلى الغلو والمبالغة لستر كذب الإحساس، وفتور العاطفة، وعوج التصور.

وشعر الصعاليك فيه تمثيل لجانب من الفروسية الجاهلية بفهم العدائين للقيم، وتصورهم الخاص لسيادتها، وعلى الرغم من حماسة لغته، وحدّة انفعاله، وجاذبية سرده وقصصه، وفنية صوره في التعبير عن المغامرة والسطو، فإنه مباين للحق في

(١) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي ص ٧٣.

(٢) مسلم: صحيح مسلم جـ١٣/١٠٦ كتاب الصيد حديث رقم ٥٧.

(٣) ابن حزم: رسالة مراتب العلوم ص ٦٧.

فكرته وفلسفته، بعيد عن الصواب في أسلوب تحقيق غايته.

ولعل في موقف ابن عبد البر القرطبي (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣) معاصر ابن حزم من أبيات سعد بن ناشب ما يعزز التفسير السابق، إذ لم يكن المعنى الشعري بمحاسنه وعلو نبرة الانفعال فيه صارفاً ابن عبد البر عن تقويم مقتضى المعنى (المضمون) بما يحمل من مواقف، ويثير من أفكار. يقول سعد بن ناشب:

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير نفسه ... ولم يرض إلّا قائم السيف صاحبا

ويقول ابن عبد البر: «الاستبداد مذموم عند جماعة الحكماء، والمشورة عند غاية العلماء، ولا أعلم أحداً رضي الاستبداد وحمده، إلّا رجلٌ واحد مفتون مخادع لمن يطلب عنده لذته فيرقب غرته، أو رجل فاتك يحاول حين الغفلة ويرتصد الفرصة، وكلا الرجلين فاسق مائق، مثال أحدهما قول عمر بن أبي ربيعة يخاطب من يخدعه:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

ومثال الآخر: قول سعد بن ناشب العنبري الأعرابي: (البيتان السابقان)»[1].

وبمقتضى المعنى وبسوء الإحساس والأداء ورداءة الغاية كان ضمّ ابن حزم شعر عنترة في الحرب إلى شعر الصعاليك، إذ قدّم عنترة صور بطولته وبطشه لوحات تجسيدية لصرعاه، إرضاءً لمحبوبته، وإظهاراً لفتوته، وإشفاء لسقم النفس مما لحقها من منقصة:

---

(١) ابن عبد البر القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس ١/٤٥٧.

ولقـد شفى نفسي وأبـرأ سقمهـا قيل الـفـوارس ويك عنتـر قدم

ولما كان شعر التغرب وما يتصل به من وصف للمفاوز مرتبطاً برداءة الغاية في توهين عرى الارتبـاط بالـوطن، واستمـراء المغتـرب لألـوان من أحـاسيس المعـاناة والانكسار والضعف جاء نهي ابن حزم عن هذا اللون من الشعر وتعليله لذلك بقوله: «لأنها تسهل التحول والتغرب وتنشب المرء فيما ربما صعب التخلص منه بلا معنى»[1].

ولعل ابن حزم متأثر في هذا النهي بأمرين: أحدهما: واقع الأندلس في صراعه مع النصارى الذين يتطلب دفعهم المرابطة والجهاد، وثانيهما: معاناة المغاربة في المشرق واستقرار كثير منهم فيه. غير أن ابن حزم ربما فاته الالتفات إلى أن الاغتراب باعث قوي على الحنين إلى الوطن ورابط من روابط التعلق به، وفي شعر مجاهدي الفتح الإسلامي صورة لذلك.

ولا مراء في أن ابن حزم ينزع في تقسيمه السابق عن المنهج الإسلامي العام في تأديب الأبنـاء وتـربيتهم، وغـرس مكـارم الأخلاق في نفوسهم، خاصة في مراحل التكوين وترويض النفس، التي هي موقع نظراته، ومحط عنايته، يؤكد ذلك قوله: «وإن سمـاع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة. . .» وقوله في أثر بعض الأشعار: «وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى»، على أن في لفظي «التسهيل والتهوين» اللذين جعلهما ابن حزم معبر الآثار الفاسدة، ما يحدد فترة عدم الثبات في تربية الناشئة.

ويعضد ابن حزم هذا المصدر الذي ينزع عنه في التنظير بخبرة واسعة في الرواية وبـاع طويل في إنشاء الشعر، احتراساً لمذهبه من النقد والتسفيه، وتعزيزاً للنظرية بالتطبيق، يقول: «ولا يظن ظان أن هذا علم جهلناه فذممناه، فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف توسعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكنا من الإشراف على معانيها،

(١) ابن حزم: رسالة العلوم ص ٦٨.

وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف قوتنا على صناعته، وكيف تأتي مقصده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه والتقصير، ولكن الحق أولى بما قيل»[1].

ولازم هذا النزوع التربوي عند ابن حزم وعي بطبيعة الوظيفة الشعرية في الإمتاع والتعليم سلباً وإيجاباً، فالشعر في المنظور النقدي، قديمه وحديثه، يمتع ويعلم معاً؛ فالشاعر يعلِّم الناس ما هو خير وما هو شر، فإذا أمتع بالخير جعل الناس يقبلون عليه، وإن امتع بالشر حفز الناسَ إلى الرغبة فيه[2]؛ لأن الاستجابة العقلية للحقيقة الشعرية استجابة سريعة لا تحتاج إلى التوثيق والبرهان ليتبين المتلقي لها أنها حقيقة[3].

وفي ظل هذا المنهج التربوي والوعي الوظيفي للشعر كان طبيعياً ألا يلتفت ابن حزم إلى الإثـارة والجمال من ألوان الإمتاع الأدبي، فبالغ في تحسس الخطر بغير موجباته ومقتضياته، فاللوحات الفنية في شعر الصحراء، والصور التشخيصية في وقائع عنتـرة، والقصص السـردية التعبيرية في مغامرات الصعاليك، تحقق الإثارة بصدق تجـربتهـا، وجمـال بنيتها، ومباينة المبالغة وملاحظة الواقع. وتكتسب الإثارة أبعاداً خلقيه إذا كانت ذات غايات رفيعـة من المعـرفـة والقيم، فبعض الأنماط المرفوضة تحمل غايات تربوية فيما تبعثه من حماسة أو تحققه من قدرة الاحتمال والصبر.

روى ابن القـوطية وهو يعرض لأخبار أمية بن عيسى وكان وزيراً للأمير محمد الأول، وأنـه خطر بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة (بقرطبة) ورهائن بني قسي ينشـدون شعـر عنتـرة، فقال لبعض الأعوان: ايتني بالمؤدب، فلما نزل في فراش المدينة، وأتاه المؤدب، قال: لولا أني أعذرك بالجهل لأدبتك، تعمد إلى شياطين قد شجي الخلفـاء بهم، فترويهم الشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة، كف عن

(١) ابن حزم الظاهري: رسائل ابن حزم (رسالة مراتب العلوم) ص٦٩.

(٢) د. عبد الجبار المطلبي: مواقف في الأدب والنقد ص ١٥٦.

(٣) المرجع ذاته ص١٥٧.

هذا، ولا ترويهم إلا خمريات الحسن بن هانىء، وشبهها من الأهزال»[1].

ولا تخلو قصائد الصعاليك من قيم تربوية في الكرم ممتعة إذا نزعت عن منهجهم، وجردت من فلسفتهم القائمة على إباحة الملكية الفردية للنهب، والعدوان على ذوي اليسار بالسلب، يقول عبد الملك بن مروان: «ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني إلا عروة بن الورد في قوله:

إني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي مسّ الحق والحق جاهد»[2]

وذهب الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ) مذهب ابن مسكويه وابن حزم في رعاية الناشئة من رواية شعر الغزل لما فيه من إفساد طبائعهم فقال: «ويحفظ (الصبيان) من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد»[3].

رواية الشعر والتكامل بالعلم النافع

إن موقف الإحسان من تأديب الناشئة برواية الشعر الحسن، لم يكن الإجماع عليه ـ فيما أنبئت به الأخبار والمقولات السابقة ـ ملغياً النسبة أو التناسب بينه وبين

---

(١) ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس ص ١٠٧ طـ مدريد.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢/ ٦٧٥ـ٦٧٦.

وفي معنى الحق جاهد، يقول ابن السكيت: «يجهد الناس، وذلك أن الحق يطرقه فيؤثره على نفسه وعلى عياله، والحق الذي ذكره: صلة الرحم وإعطاء السائل وذوي القربى، فمن فعل ذلك جهده».

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/٩٣.

محصـول المتـأدب من القـرآن الكـريم والعلم النافع من حديث رسول الله وعلوم الشريعة، فقد أدرك ذلك بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم فنبهوا على الإخلال بالتناسب بالإفراط في حفظ الشعر وروايته دون العلم النافع، وأرشدوا إلى التكامل بعدم التفريط برواية الشعر فوزاً بالعلم النافع.

وفد غالب بن صعصة وابنه الفرزدق إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسأله عن الغلام، فقال غالب: هذا ابني، قال: ما اسمه؟ قال: همّام، وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكـلام العرب، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً. قال علي بن أبي طالب: علّمه القرآن، فإنه خير له من الشعر[1].

وغير خافٍ إحساس علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقصور منهج غالب في تربية ابنه وتأديبه، فضلاً عن مفاخرته وسروره بقرب ولادته شاعراً، فأرشده، منبهاً على تفريطه، إلى خير ما يمـلأ قلب ابنه ووجدانه، وأصدق ما يجرى على لسانه، إلى آيات الله البينـات المحكمات. ووقع صدق توجيه أمير المؤمنين في قلب الفرزدق ووعاه عقله، فقيد نفسه وآلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن، فكان له ما أراد[2].

فمن التفريط إذاً أن يقتصر محفوظ المتعلم في منهج التأديب والتعلم على رواية الشعر، مهما تكن المبالغة في قيمته الخلقية والنفسية، ومنافعه السلوكية والعملية، غير أن من الإفراط كذلك إهمال رواية الشعر في محصول المتعلم، لما للشعر من أثر غير منكر في تربية الذوق وتوجيه النشاط وتقويمه. هذا معاوية بن أبي سفيان يسأل عبيد الله بن زياد عمّـا يروي من الشعـر، فقـال: كرهت أن أجمـع كلام الله وكـلام الشيطان في صدري، فقال معاوية: اعزب[3]. والله لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين مراراً، ما يمنعني من الانهزام إلّا أبيات ابن الاطنابة حيث يقول:

---

(١) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ١/٢٠٦.

(٢) المرزباني: معجم الشعراء ص ٤٦٦ وأمالي المرتضي ١/٦٣.

(٣) اعزب: أبعد

أبـت لي عفـتـي وأبـى بلائـي | وأخـذي الـحـمـد بالـثـمن الـربيح
وإجشـامي على الـمكـروه نفسي | وضـربـي هامـة الـبـطل الـمشيح
وقـولـي كلمـا جشـأت وجـاشـت | مكـانـك تحـمـدي أو تستـريحي
لأدفـع عن مآثـر صالـحـات | وأحـمـي بعـد عن عرض صحـيح

وكتب إلى أبيه أن روّه الشعر، فرواه، فما كان يسقط عليه شيء»[1].

إن تغليب رواية الشعر في المحفوظ على القرآن الكريم والعلم النافع يوقع في قبح الصنيع الذي جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصوراً له في قوله: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً»[2]، وفي رواية أخرى تشنيع أشد: «لأن يمتلىء جوف أحدكم من عانته إلى هامته قيحاً يتخضخض خير له من أن يمتلىء شعراً»[3]، ذلك أن فيها تصويراً حاد الخطوط والأركان في التنفير ممن هذه حاله، تعاضد في تشخيصه اللون وقذارته (القيح) والحركة وصوتها(يتخضخض) والامتداد المتناهي في الامتلاء المتجاوز لحدوده الطبيعية (من عانته إلى هامته). حتى يغشى عقله ويستر تفكيره عن الصواب، فضلاً عن القسم «لأن»، وقلب الحال، إذ القيح بسوئه أفضل من الامتلاء بالشعر.

ومناسبة هذه المبالغة في ذم الشعر كما يقول ابن حجر: «أن الذين خوطبوا به كانوا في غاية الإقبال عليه، والاشتغال به، فزجرهم عنه ليقبلوا على القرآن وعلى ذكر الله وعبادته، فمن أخذ بعد ذلك ما أمر به، لم يضره ما بقي عنده مما سوى ذلك»[4].

وكان البخاري قد فهم هذا الحديث النبوي فهماً دقيقاً أبان فيه عن مرماه وغايته فأدرجه تحت عنوان «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده

---

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/١٥٩ ط دار نهضة مصر ١٩٦٧.
(٢) البخاري: انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/٥٤٨.
(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٠ رواه الطبراني وحسن إسناده الهيثمي وكذلك ابن حجر.
(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/٥٤٨.

عن ذكر الله والعلم والقرآن»[1].

وهذا الحديث عام في شأن غلبة الشعر على محفوظ المسلم الأجدر من القرآن والعلم، ولا يخصصه ما روي عن عائشة رضي الله عنها إذ قالت: لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلىء شعراً هجيت به»[2].

لأن هذا الحديث لا يصح من أوجه عدة، منها: أن سنده ضعيف، قال الهيثمي: «رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفهم»[3] وقد روي من طريق آخر عن الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة، والكلبي قد طعن عليه أصحاب الحديث وقوله غير موثوق به عندهم[4].

وأن هجاء النبي صلى الله عليه وسلم ببيت أو شطر بيت يوجب الكفر، وأهدر الرسول عليه الصلاة والسلام دم عشرة من الشعراء ممن تناولوا ذلك، ونفذ القتل في أربعة منهم، على أن حفظ البيت الواحد مما هجي النبي صلى الله عليه وسلم به «يَري قيحه، ولا يتوارى قبحه، فضلاً أن يمتلىء الجوف به»[5].

وللامتلاء دلالات عند أهل العلم تصرف الحديث عن هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى نسبة المروي من الشعر والمحفوظ من القرآن، وإلى غرض الشعر ومقبوله أو مرفوضه.

فأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) يرى أن التشنيع واقع على من غلب عليه الشعر دون تحديد لغرضه أو لونه هجاءً أو مجوناً أو فحشاً أو مدحاً، فوجه الحديث

---

(١) المصدر نفسه ١٠/٥٤٨.

(٢) الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١١١.

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٠.

(٤) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص٣٦١.

(٥) المظفر بن الفضل العلوي: ص٣٦١.

عنده: «أن يمتلىء قلبه من الشعر حتى يغلب عليه، فيشغله عن القرآن وعن ذكر الله، فيكون الغالب عليه من أي الشعر كان»[1]، فللمرء على ذلك أن يروي ما شاء من الشعر (من أي الشعر كان) شريطة ألاّ يغلب على القرآن والعلم.

ونقل الطحاوي عن قوم فيهم عبيد الله بن محمد بن عائشة أن معنى الامتلاء الكثرة دون القلة، والغلبة دون الأخذ من الشعر بنصيب محدود، فقالوا: «لو كان أريد بذلك ما هجي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعر؛ لم يكن لذكر الامتلاء معنى، لأن قليل ذلك وكثيره كفر، ولكن الامتلاء يدل على معنى في الامتلاء ليس فيما دونه»[2].

ولما ثبت عند الطحاوي أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة (ت ٣٢١هـ) «أن ما نهي عنه ليس لأن الشعر مكروه، ولكن لمعنى كان في خاص من الشعر»[3] جاز أن ينصرف معنى الامتلاء عنده إلى خصوص ما ساء معناه وفسد من شعر الهجاء وايذاء المسلمين بالتشبيب والكذب دون غيره من باقي الشعر المباح بالآثار المتواترة.

والامتلاء في رواية الشعر عند ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) الاقتصار عليه دون علم آخر، أما الكثرة والقلة فأمران خارجان عن الإثم وحدوده، ما دام للإنسان نصيب من علم في دينه، وفصل ابن حزم ذلك تفصيلاً كان أوضح ممن سبقه وأشمل، إذ يقول: «وأما علم الشعر فإنه على ثلاثة أقسام:

أحدهما: أن لا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام، بين ذلك قوله عليه السلام: لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً.

والثاني: الاستكثار منه، فلسنا نحبه وليس بحرام، ولا يأثم المستكثر منه إذا ضرب في علم دينه بنصيب، ولكن الاشتغال بغيره أفضل.

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام: غريب الحديث ١/٣٦.

(٢) الطحاوي: معاني الآثار ٤/٣٠٠.

(٣) المصدر نفسه ٤/٣٠٠.

والثالث: الأخـذ منه بنصيب، فهذا نحبه ونحض عليه؛ لأن النبي عليه السلام قد استنشد الشعر، وأنشد حسان على منبره عليه السلام، وقال عليه السلام: «إن من الشعـر حكما» وفيه عون على الاستشهاد في النحو واللغة، فهذا المقـدار هو الذي يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر، وفي هذا كفاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

وميز ابن رشيق القيرواني بين نوعين من الشعـر، أحـدهما: ما كان لهواً مالكاً للقلب صارفاً للنفس عن عبادة الله وذكره فهو المذموم لغلبته على صاحبه، وثانيهما: ما كان شعراً حسناً نافعاً فلا إثم على صاحبه؛ لأنه قليل عارض، وعلى ذلك فالمقصود في الحديث «إنما هو من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره سواء، وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه»[2].

وذهب أبـو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) إلى أن المذموم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعر التجرد له[3]، فكأني به يذهب مذهب ابن حزم في الاقتصار عليه دون علم آخر.

ويستوي عند صاحب الكشاف قول الشعر إنشاءً أو إنشاداً في لزوم غلبة ذكر الله وتـلاوة القـرآن على إبـداع الشعر وروايته لقول الله تعالى ﴿الا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات وذكروا الله كثيراً﴾، فقال: «استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون من ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر»[4].

---

(١) ابن حزم الظاهري: رسائل ابن حزم (رسالة التلخيص لوجوه التخليص) ٣/١٦٣.

(٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده ١/٣٢. لا

(٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٢٦.

(٤) الزمخشري: الكشاف ٣/١٣٣.

وهكـذا فإن المدار في النهي والذم «على من جعل دأبه رواية الأشعار الرقيقة والأهـاجي الـدقيقـة حتى شغله ذلك عن معرفة ما يجب عليه من أمر دينه وصلاح دنياه»[1]. أما من عَمَر قلبه الإيمان وسكن فيه القرآن، فأقام حدوده قبل أن يتلو حروفه، وشغف العلم النافع نفسه، فأدرك به الحدود والقيود، فإن الامتلاء بهما ضابط حافظ ألا يختلط بهما ما يشينهما، وألا يتسرب إليهما ما يخل بهما من الشعر رواية أو إبداعاً «قال النضر: كيف تمتلىء أجوافنا ـ يعني الشعر ـ وفيهـا القرآن والفقه والحديث وغير ذلك، وإنما كان هذا في الجاهلية، فأما اليوم فلا»[2].

وفي رواية الحسن من الشعر نفع عظيم في التأديب وفي علم الرواية؛ لأن الشعر والحالة هذه يحمل غاية ثنائية من التعليم والإمتاع، وفي إمتاعه معرفة الحكمة، وقول الحق، والاهتـداء به، وفعل الخير وتعضيد السعي إليه، روي أن ابن المقفع قال لابنه: يا بنيَّ حبّب إلى نفسك العلم حتى ترأمه[3]، ويكون لهوتك وسلوتك، والعلم علمـان: علم يدعـوك إلى آخـرتك فآثره على ما سواه، وعلم لتزكية القلوب، وهو جلاؤها؛ وهو علم الأدب، فخذ بحظك منه»[4].

وللإحسان في علم رواية الشعر لازم في تمييز الراوية لما يأخذ نفسه بروايته، وتمحيص غثه من سمينه، ونقد مبتذله من مصونه، ما دام «الإكثار من رواية الشعر هو كسـب غير محمـود، لأنـه من طريق البـاطـل والفضـول، لا من طريق الحق والفضائل»[5]، هذا أبو عبيدة معمر بن المثنى يقف على رجل ينشد شعراً قد طوّل فيه، فقال أبو عبيدة: أما أنت فقد أتعبت نفسك بما لا يجدي عليك، وما كان أحسن من

---

(١) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ٣٦٢.

(٢) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٦٣.

(٣) رأمه: ألفه وأحبه.

(٤) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ق ١/ ١٦٠ طـ دار نهضة مصر.

(٥) ابن حزم الظاهري: رسائل ابن حزم (رسالة مراتب العلوم) ٤/ ٦٨ـ٦٩.

أن تقصر من حفظك في هذا الشعر ما طال منه فيه، ألم تعلم أن الشعر جوهر لا ينفد معدنه، فمنه الموجود المبذول، ومنه المعوز المصون، فعليك بالبحث عن مصونه يكثر أدبك، ودع الإسراع في مبذوله ثم قال:

مصـــون الـشـعـــر تحـفـــظه فيكـفـى وحـشـــو الشعـــر يورثـــك المـــلالا[1]

وتدبر الراوية لما يروي من الشعر الصادق الداعي إلى الفضائل أمر لا يخفى شأنه في أنه يقتضى لراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال كما يقول ابن حزم[2]، أما إذا انقلب الحال، وكان همّ الراوي الجمع والازدياد فذلك وبال وخسران «قال دغفل بن حنظلة: إن للعلم أربعة: آفة ونكداً وإضاعة واستجاعة، فآفته النسيان، ونكده الكذب، وإضاعته وضعه في غير موضعه.

وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء ولخرق سياسة أكثر الرواة، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه، وتدبر ما قد دونوه، كان ذلك الازدياد داعياً إلى النقصان، وذلك الربح سبباً للخسران»[3].

ومن تمام الإحسان في رواية الشعر ارتباط حفظه بحفظ القرآن الكريم في تعليم الولدان في مختلف الأمصار الإسلامية من المشرق والأندلس، إلّا ما كان من أهل المغرب فمذهبم في ذلك الاقتصار على تعليم القرآن فقط، ولا يخلطون ذلك بسواه في مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه[4].

وربما تقدم تعليم العربية حفظ القرآن في بعض الأمصار المشرقية، يقول أبو بكر

---

(١) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/١٦٢.

(٢) ابن حزم: رسالة مراتب العلوم (رسائل ابن حزم) ٤/٦٨.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٧٤.

(٤) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ٢/٥٣٨.

ابن العربي (ت٥٤٣هـ): «وللقوم في التعليم سيرة بديعة، وهي أن الصغير إذا عقل بعثوه إلى المكتب، فإذا عبر المكتب أخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية، فإذا حذقه كله، أو حذق منه قدراً خرج إلى المقرىء فلقنه كتاب الله، فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزباً حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم أو تركه»[1].

أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن أولاً لأنه أصل الدين ومنبع العلوم، غير أنهم لا يقتصرون عليه بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط، ولعل هذا المذهب أكثر مذاهب العالم الإسلامي تنظيماً[2].

وفي الجمع بين حفظ القرآن ورواية الشعر فائدة في تحصيل ملكة في اللسان العربي، وحظ من التصرف في الكلام قد لا تتحقق بحفظ القرآن وحده، ذلك أن القرآن لا ينشأ عنه ملكة في الغالب، لا لأن الناس مصروفون عن الإتيان بمثله كما ذهب ابن خلدون[3]، بل لأن الاقتدار على التصرف في اللسان بحاجة إلى تنوع الأساليب واحتوائها لحاجات دنيوية فضلاً عن التكاليف الدينية، على أن الخشية من احتذاء أساليبه وتقليدها المثل بالمثل، وهي وسيلة نافعة في اكساب المهارة وإتقانها، عامل آخر من عوامل عدم تحقيق الملكة المقصودة به وحده في هذا المجال، ومع ذلك فإن القرآن يظل معيناً ثرّاً ورفداً عظيماً، يمد حافظه والحريص على تلاوته بأساليبه بشكل مباشر أو غير مباشر، بما يكفل لكلامه رونق البلاغة وأناقة التعبير.

وأفاد القاضي أبو بكر بن العربي من طريقة بعض الأمصار المشرقية في تقديم تعليم العربية هجاء وشعراً، فحاول المواءمة بينها وبين حال اللغة المتردي الفساد في

(١) أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن جـ٢/٢٩١.

(٢) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٧٦.

(٣) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ٢/٥٣٩.

الأنـدلس فذهب إلى طريقة وصفها ابن خلدون بأنها غريبة قُدِّم فيها تعليم العربية والشعر على القرآن وعلومه وعلل لذلك بقوله: «لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو على تقـديمـه وتعليم العـربية في التعليم ضرورة فسـاد اللغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمـرن فيه، حتى يرى القـوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال: ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيره أهم ما عليه، ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه»[1].

وقوَّم ابن خلدون هذا المذهب بأنه حسن لولا أن العوائد جرت بتقديم القرآن في الحفظ والـدراسـة، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن، «وإيثاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبى من الآفات والقـواطع عن العلم فيفوته القرآن... ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق»[2].

ولعل الطريقة المثلى هي الجامعة للأمرين معاً، حفظ القرآن ورواية الشعر؛ على أن يراعى التـدرج في تنـاسب المحفـوظ واستيعاب الطالب وقدرته، يقول صاحب العواصم من القواصم: «والذي يجب على الولي في الصبي إذا كان أباً أو وصياً أو حاضنـاً، أو الإمام، إذا عقل أن يلقنه الإيمان ويعلمه الكتابة والحساب، ويحفظه أشعار العرب العاربة، ثم يحفظه إذا استقل واستوفى العشر الثانـي من كتاب الله وهو أمر وسط بين أهل المشرق والمغرب، ثم يحفظ أصول سنن الرسول وهي نحو من ألفي حديث في الأبواب التي نظمها البخاري ومسلم وهي عماد الدين... الخ»[3].

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ٢/٥٣٩.

(٢) المصدر نفسه ٢/٥٤٠.

(٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٧٦ نقلاً عن العواصم والقواصم (مخطوط جامع الزيتونة).

وتجدر الإشارة إلى أن المقررات الابتدائية في الشعر كانت من الشعر الجاهلي للستة المشهورين من أصحاب الواحدة أو المعلقات فضلاً عن ديوان الحماسة، يقول ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته لبعض الأندلسيين: «وكتب بخطه الأنيق كثيراً من كتب المبتدئين كالجُمل وأشعار الستة والحماسة المازنية (حماسة أبي تمام) وفصيح ثعلب ونحوها»[1].

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ٥/٢٣٢.